



عادت تدق طبول الحرب العالمية الثالثة، حرب لا أحد مستعداً لها، ولا أحد يريدها، وإن نشب فسيكون السبب هو هذه الفوضى العارمة في العلاقات بين الدول، إقليمية كانت أم دولية. التهديد الذي أطلقه رئيس الوزراء الروسي ميدفيديف بينما يناقش وزراء دفاع الناتو فكرة التدخل في حرب سوريا لا يجب أن يؤخذ إلا على أنه تحذير للغرب والعرب من أن الساحة السورية لم تعد تحتمل أخطاب على الأرض أكثر مما هي الآن، وأن إضافة جيوش جديدة تؤدي حتماً إلى أخطاء في حسابات القادة العسكريين، تؤدي بدورها إلى صدامات غير متوقعة ولا مطلوبة.

الحرب العالمية يمكن أن تنشب بينما العالم إذا استمر تدهور الوضع في الشرق الأوسط على ما هو عليه، حالة حرب الجميع ضد الجميع، هذه العبارة التي وردت على لسان زعيم روسيا لا يجب أن نأخذها كإهانة للعرب، بقدر ما يجب أن نعتبرها تحذيراً من رئيس دولة عظمى إلى زعماء دول إقليمية بأن الفوضى الناشبة في الشرق الأوسط سوف تتسبب في تدمير ما حققه شعوب المنطقة من تنمية أو تقدم.

تكشف تصريحات قادة روسيا والناتو والتصريحات الأخيرة لوزير دفاع أميركا عن أن مرحلة مهمة في الوفاق الروسي الغربي تكاد تصل إلى نهايتها. نذكر جيداً كيف تطورت العلاقات بين الغرب وروسيا في أعقاب نهاية الحرب الباردة. جاءت فترة تبادل فيها الطرفان إجراءات بناء الثقة، فلا حرب ولا تهديد بحرب ولا استعداد مكثف لها. تعهد الناتو بأن لا يقيم قواعد في دول أوروبية شرق خط انهار أودر/ نس/ دانوب، وتعهدت روسيا بعدم التدخل في شؤون هذه الدول، بمعنى آخر تعهد

الطرفان الروسي والغربي بأن يكون التناقض على شرق أوروبا سل米اً وأن لا تسعى دول الناتو إلى إقامة علاقات تهدد أمن روسيا ومصالحها. ثم تغيرت الأوضاع في أوروبا كما في غيرها من أقاليم العالم، توقفت إجراءات بناء الثقة، استأنف الغرب محاولات جديدة لجذب دول شرق أوروبا للانضمام لمنظمات مثل الاتحاد الأوروبي وإقامة علاقات مع حلف الناتو، وعادت روسيا تضغط على هذه الدول وتتدخل في شؤونها بعد أن تأكدت من أن الغرب، وبالتحديد الولايات المتحدة، لم يتوقف عن التدخل. كذلك انتهت مرحلة الشفافية العسكرية بين الناتو وروسيا، وضعفـت الثقة وتعدد التهديدات المتبادلة، وفي عام ٢٠٠٨ أعلنت روسيا وقف العمل باتفاقية الحد من الأسلحة التقليدية، وعادت تنظم مناورات عسكرية واسعة من دون استئذان مسبق من الناتو كما قضـت الاتفاقية، هذه التطورات وغيرها عجلت بوقوع خلل في التوازن الاستراتيجي بين الغرب وروسيا، وبخاصة بعد أن أصبحـت القوات الروسية أكثر قدرة على الحركة وأسرع في حشد القوات في شكل يسمح لروسيا بمفاجأة الغرب عسكرياً في أي مكان في شرق أوروبا قبل أن يجد الوقت اللازم لصد الهجوم المـقبل من روسيا.

تصور كثيرون أنه في ظل التوتر القائم والمتـصاعد بين روسيا والغرب، أن تخرج من اجتماعات الناتو الأخيرة في بروكسل واجتماعات قادة الأمن والدفاع والسياسة والخارجية، خطط وبرامج تـمـتنـع بالصدقـية الـلاـزـمـة لـقـنـاعـ شـعـوبـ أـورـوـبـاـ الشـرـقـيـةـ، وبـخـاصـةـ دـوـلـ الـبـلـطـيقـ الـثـلـاثـ وـبـولـنـدـ بـجـديـةـ النـاتـوـ فـيـ اـسـتعـادـةـ الثـقـةـ وـالـاطـمـئـنـانـ إـلـىـ الـقـارـةـ. خـابـ أـمـلـ مـنـ اـمـتـلـكـ هـذـاـ التـصـورـ حين اكتـشـفـواـ أـنـ قـادـةـ النـاتـوـ قـرـرـواـ تـكـلـيفـ ثـلـاثـ سـفـنـ صـغـيرـةـ مـراـقـبـةـ وـتـبـعـ المـرـاكـبـ وـالـقـوـارـبـ التـيـ تـحـمـلـ لـجـئـينـ مـنـ السـواـحـلـ التـرـكـيـةـ إـلـىـ الـيـونـانـ فـيـ بـحـرـ اـيـجـةـ، وـالـهـدـفـ هوـ كـشـفـ حـقـيـقـةـ وـطـبـيـعـةـ التـجـارـةـ فـيـ الـبـشـرـ. تـقـرـرـ أـيـضاـ، وـهـذـاـ قـرـارـ مـهـمـ شـكـلـاـ، زـيـادـةـ عـدـدـ قـوـاتـ النـاتـوـ التـيـ «ـتـزـورـ»ـ دـوـلـ شـرـقـ أـورـوـبـاـ وـتـقـيـمـ فـتـرـاتـ قـصـيـرـةـ بـالـتـنـاوـبـ. هـذـاـ قـرـارـ كـانـ القـصـدـ مـنـ تـوجـيهـ إـشـارـةـ إـلـىـ مـوـسـكـوـ بـأـنـ النـاتـوـ غـيـرـ مـسـتـعـدـ بـعـدـ لـتـصـعـيدـ التـوتـرـ مـنـ طـرـيـقـ إـقـامـةـ قـوـاعـدـ دـائـمـةـ فـيـ تـلـكـ الدـوـلـ، وـلـكـنـهـ تـحـتـ الضـغـطـ مـنـ جـانـبـ دـوـلـ شـرـقـ أـورـوـبـاـ يـجـدـ نـفـسـهـ مـضـطـرـاـ لـرـفـعـ دـرـجـةـ اـسـتـعـدـادـاتـهـ، كـذـلـكـ اـنـضـمـتـ أـمـيرـكـاـ إـلـىـ هـذـهـ الـجهـودـ المـتواـضـعـةـ بـإـعـلـانـ آـشـتوـنـ كـلـارـكـ وـزـيـرـ دـفـاعـهـ بـأـنـ بـلـادـهـ سـوـفـ تـضـيـفـ زـيـادـةـ مـالـيـةـ مـحـدـودـةـ فـيـ موـازـنـتـهـاـ المـخـصـصـةـ لـإـنـفـاقـ عـلـىـ قـوـاتـهـ فـيـ أـورـوـبـاـ، وـلـمـ يـذـكـرـ أـنـ قـرـرـ زـيـادـةـ عـدـدـ الجـنـوـدـ الـأـمـيرـكـيـنـ فـيـ أـورـوـبـاـ، وـهـوـ العـدـدـ الـذـيـ لـاـ يـتـجـاـزـ ٣ـ٠ـ٠ـ٠ـ جـنـديـ بـعـدـ أـنـ كـانـ خـالـلـ الـحـرـبـ الـبـارـدـ يـتـجـاـزـ ٣ـ٠ـ٠ـ,٠٠ـ. بـمـعـنـىـ آـخـرـ، وـفـيـ ظـلـ التـوتـرـ الشـدـيدـ مـنـ رـوـسـيـاـ وـالـنـاتـوـ، لـمـ تـحـاـولـ إـدـارـةـ أـبـوـبـامـ إـدـخـالـ تـغـيـرـ وـلـوـ بـسـيـطـ فـيـ سـيـاستـهـ الـدـافـعـيـةـ الـدـولـيـةـ، بلـ عـلـىـ عـكـسـ أـصـرـتـ عـلـىـ تـأـكـيدـ اـسـتـمرـارـ خـطـةـ التـهـدـيـةـ فـيـ أـورـوـبـاـ وـالـانـسـاحـابـ الـمـتـدـرـجـ مـنـ الـمـسـؤـلـيـاتـ الـأـطـلـسـيـةـ.

من المهم بمكان الاعتراف بأن الصراع على سوريا، أو في سوريا، بات يؤثر في العلاقات عند القمة الدولية بأكثر مما أثرت أزمة أوكرانيا. أوكرانيا، ساحة محرمة عسكرياً على الغرب بحكم التصاقها بـروسيا، مثلها مثل غيرها من مساحات الجوار الروسي. أما سوريا فـسـاحـةـ مـخـلـفـةـ سـوـرـيـةـ سـاحـةـ مـفـتوـحةـ لـكـلـ مـنـ شـاءـ أـنـ يـدـيرـ فـيـهـ صـرـاعـاتـ إـقـلـيمـيـةـ أـوـ دـولـيـةـ، وـلـكـلـ مـنـ شـاءـ أـنـ يـنـشـبـ فـيـهـ حـرـبـاـ طـائـفـيـةـ أـوـ مـذـهـبـيـةـ أـوـ أـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ. السـاحـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ تـعـجـ بـالـفـعـلـ بـالـمـغـامـرـيـنـ مـنـ كـلـ جـهـةـ وـتـوـجـهـ. بـاتـ جـائزـاـ لـدـوـلـ إـقـلـيمـ، وـالـدـوـلـ الـكـبـرـىـ، أـنـ تـجـنـدـ أـوـ تـؤـجـرـ مـاـ شـاءـتـ مـنـ مـرـتـزـقـةـ وـدـوـلـ مـحـتـاجـةـ، لـتـحـارـبـ فـيـ مـاـ بـيـنـهـ شـرـطـ أـلـاـ تـجـرـ مـعـهـ الدـوـلـ الـمـمـوـلـةـ وـالـمـخـطـطـةـ إـلـىـ سـاحـاتـ الـقـتـالـ.

حتـىـ أـنـ هـيـنـ قـرـرـ الدـوـلـ الـكـبـرـىـ تـشـكـيلـ حـلـفـ عـسـكـريـ مـنـ عـشـراتـ الدـوـلـ لـمـحـارـبـةـ «ـدـاعـشـ»ـ، لـمـ تـحـاـولـ دـوـلـ وـاحـدةـ مـنـ هـذـهـ الدـوـلـ النـزـولـ بـقـوـاتـهـ إـلـىـ الـأـرـضـ. اـسـتـمـرـتـ الـحـرـبـ بـالـقـصـفـ الـبـحـرـيـ وـاقـتـالـ بـيـنـ مـيلـيشـيـاتـ وـحـكـومـةـ دـمـشـقـ مـوـلـتـهـاـ بـنـفـسـهـاـ وـمـعـ أـطـرـافـ خـارـجـيـةـ آـخـرـ.

إـلـاـ أـنـهـ عـنـ الـلـاحـظـةـ التـيـ أـعـلـنـتـ فـيـهـ دـوـلـ بـعـيـنـهـاـ عـزـمـهاـ إـنـزالـ قـوـاتـ بـرـيـةـ عـلـىـ أـرـضـ سـوـرـيـةـ، ثـمـ عـنـدـمـاـ خـرـجـ مـسـؤـولـ فـيـ حـلـفـ الـأـطـلـسـيـ يـعـلـ عـزـمـ الـحـلـفـ التـدـخـلـ فـيـ الـحـرـبـ، لـمـ تـسـكـتـ مـوـسـكـوـ، وـمـاـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ تـسـكـتـ. مـوـسـكـوـ، كـفـيرـهـاـ مـنـ الـعـاصـمـ الـتـيـ أـرـسـلـتـ طـائـرـاتـهـ إـلـىـ أـجـوـاءـ سـوـرـيـةـ بـحـجـةـ مـحـارـبـةـ «ـدـاعـشـ»ـ، لـمـ تـجـعـلـ «ـدـاعـشـ»ـ هـدـفـهاـ الـوحـيدـ، كـانـ هـدـفـهاـ دـعـمـ نـظـامـ

الحكم في دمشق تماماً كما كان لعواصم أخرى أهداف أخرى. تدرك موسكو أن ساعة الحسم بالنسبة إلى مستقبل سوريا قد حانت، وهي أيضاً ساعة الحسم بالنسبة إلى مكانة روسيا الدولية وساعة رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط. خريطة تتضمن إعادة تعريفه وتحديد حدوده الخارجية والداخلية وتوزيع مناطق النفوذ فيه. الأمر المؤكد الواضح في أذهان صانعي السياسة في روسيا، أن موسكو يجب أن تكون «طرفاً مؤسساً» في بناء نظام إقليمي جديد في الشرق الأوسط، وأنها لا يجوز أن تضيع الفرصة لثبت مواعدها التي استمرت فيها كثيراً، ولن تسمح لأطراف إقليمية أو دولية بأن تستغل الإرهاب، و«داعش» في شكل خاص، لإخراج روسيا من سوريا والانفراد بصنع هوية جديدة لسوريا، ومن خلال هذه الهوية السورية الجديدة صنع تعريف جديد للشرق الأوسط.

لا أظن أن روسيا ستتراجع أو تتنازل عن أي مكسب إقليمي جنته من وراء حملتها «الجوية» في سوريا، قد تكون في حاجة إلى فترة قصيرة أخرى، شهر مثلاً، لفرض أمراً واقعاً جديداً في سوريا، ومن خلاله تفرض مستقبلاً لها في الشرق الأوسط. الصراخ الصادر من أنقرة سواء بهدف تحفيز دول الاتحاد الأوروبي والناتو على تصعيد التدخل في سوريا لن يجدي، ولن تجدي كذلك محاولات مقايضة اللاجئين السوريين المحتجزين لديها بموقف أوروبي عالمي معاد للأكراد عموماً وال叙利亚يين وخاصة، ولن تجدي مشاعر المراة الشديدة لدى حلفاء أميركا والمنطقة، وإن كشفتها عبارة أردوغان الشهيرة «واسألاوا السعودية». فالواضح أن الناتو والدول الغربية منفردة ومنها أميركا، ليست مستعدة بالدرجة الكافية للانسياق وراء قوى إقليمية في مغامرة قد تفضي فعلاً إلى حرب عالمية ثالثة.

الحياة اللندنية

المصادر: